



محمد يوسف

قشعريرة باردة تلك التي سرت في جسد الرجل.. قشعريرة رهبة سرعان ما انتقلت إلى قلبه الذي كان ينتفض بشدة بين أضلاع ترتعد مع فرائصه وترتعش معهم أطرافه وهو يقف انتظاراً لتلك اللحظة المهيبة..  
الآن سيخرج إليه.. سينظر إليه ويكلمه.. ليت شعري كيف السبيل إلى تحمّل ذلك؟ كيف ستطيق عيناه تأمّل وجهه المنير وبأي نفسية سيواجه مثل هذا الموقف العظيم؟  
سيقف بعد لحظات بين يدي سيد ولد آدم أجمعين..  
سيقف بين يدي قائد الأمة وإمام المتقين وقرّة عين المؤمنين.  
سيقف بين يدي حامل لواء الحمد يوم يقوم الناس لرب العالمين.. إن  
ه رسول الله وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم.. كيف إذا لا يرتعد قلبه ولا تهتز فرائصه لهول اللقاء المهيب وهو الرجل البسيط الذي لم يقف من قبل بين يدي ملك ولا عظيم؛ حق له ذلك.. بل أكثر.. >هون عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة.<  
نزلت تلك الكلمات كالبرد سلمي وأماناً على قلب الرجل المسكين.. يا لتواضعك وعذب حديثك وطيب معشرتك يا إمام النبيين!  
يا لبساطة أسلوبك وعدم تكلفك ولين جنابك وخفض جناحك للمؤمنين! لست بملك ممن تعرفهم من ملوك الدنيا.. لا تأبه بسلطانهم ولا تطمع في صولجانهم ولا ترضى أن تعامل مثلهم وحق لك أن تعامل أفضل مما يعامل ملء الأرض من مثلهم.. لكنه الخلق العظيم والتواضع المبين وخفض الجناح للمؤمنين..  
هكذا تعلّنها بكل تواضع وتتذكر بساطة نشأتك وبغير تكلف تبين بساطة طعام أمك.. ولو شئت لسارت معك جبال الذهب والفضة لكنك تعلّنها دوماً كما أعلنتها لذلك الملك الذي جاءك وإن حجّزته لتستوي بالكعبة يخبرك بين أن تكون نبياً عبداً أو نبياً ملكاً فاخترت ونعم الماخترار..  
>بل نبياً عبداً.<.. >بل نبياً عبداً.<.. اخترت المتواضع يا محمد.. اخترت أن تأكل كما يأكل العبد وتجلس كما يجلس العبد وتقول: >إنما أنا عبد.<.. اخترت أن تكون في بيتك في مهنة أهلك ترقع ثوبك وتخفف نعلك وتحلب شاتك ولا يقف على بابك حارس ولا حاجب ولا تعيش في ملك ولا صولجان كما يفعل ملوك الدنيا.. بل تركب بغلتك وتحج على رحلك المراث وتفترش حصيراً خشناً يؤثر في جنبك.. تترك زخرف العيش وبهرجه وترضى أن يكون لهم في الأولى وتكتفي أنت بالأخرى.. أبيت دوماً أن يقوم لك أحد وحرصت أن تجلس حيث انتهى بك المجلس.. حتى أن الأعرابي من هؤلاء كان يأتيك بين أصحابك لا يعرفك فيقول: أيكم محمد؟  
كنت دوماً مثلاً للتواضع وخفض الجناح وعدم التكلف.. ما تركت يد أحد سلّم عليك حتى يكون هو نازعها أولاً وما نحيت رأسك عن أحد تيمم أذنك يحدّثك في أمر أهمه حتى يفرغ وما صعرت يوماً خدك لصغير ولا كبير.. تأتيك الصغيرة لبعض شأنها فتذهب معها وإلى جوارك رجل من عظماء العرب ظن أنه ملك يمشى إلى جوارك فإذا به يقف مشدوفاً لفعلك حين تتركه وتذهب مع الجارية

لتشفع لها عند سيدها الذي ضربها.. □

وها أنت يا حبيبي وسيدي تمشي في الأسواق فتمزج مع هذا وتبسطن وجهك في وجه ذلك وتلين لأولئك.. وهل ننسى أبداً حين اشتملت زاهر بن حرام رضي الله عنه ما زحاً وقائلاً: <من يشتري العبد؟> فيرد بانكسار: إذا تجدني كاسٍ داً فتجبر خاطره وتطمئن فؤاده قائلاً: <ولكنك عند الله لست بكاسٍ د>..

لو شئت لكنت أغنى الناس وأعلمهم مُلكاً وأرفعهم مجلساً ومع ذلك تجيب دعوة خادمك أنس رضي الله عنه لتطعم من طعامه البسيط في بيت جدته مليكة رضي الله عنها ثم تقوم لتصلي بهم على حصير بال قد اسود لونه من كثرة المافتراش.. لم تقبل يوماً أن تُطرى أو يغلو فيك المخلوق ويرفعوك فوق منزلة المخلوق وكنت تقول بأبي أنت وأمي: <لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم عليه السلام> (رواه البخاري)..

وحين جاءك الرجل يناديك: يا خير البرية نهيته بتواضع لو وزع على أهل الأرض لوسعهم قائلاً: <ذاك أبي إبراهيم عليه السلام> وكذا تنهى الأمة أن يخرج منها من يقول يوماً أنا خير من يونس بن متى. وحينما اضطرت أن تُبَيِّن للناس أنك سيد ولد آدم من باب الاخبار بحقيقة ذابئة حرصت على أن تقرنها بقولك المحكم: <ولما فخر>..

ويوم تدخل مكة فاتحاً منتصراً عزيزاً كريماً تأبى أن تدخلها على حال القادة المنتصرين المستعلين بل تحني جبهتك منكسراً لربك حتى يكاد عثونك أن يمس مقدمة رحلك اليرث.. □

كانت تلك حياتك وذلك تواضعك ولين جانبك فما بال كثير من أتباعك اليوم قد غيروا وبدلوا؟ ما بال بعضنا اليوم نسي أو تناسى أن ذلك الذي في السطور الماضية هو هدي حبيبه صلى الله عليه وسلم وقدمته وخلق خير من وطئ الثرى بقدميه؟ □

ما باله ينسى فينزل نفسه أو غيره فوق المنزلة ويعامل الناس من فوق برجه العاجي بتكليف واستعلاء كأنما هو ملك أو أمير؟ إن ما ذراه اليوم من مهازل في معاملة بعض من نحسبهم من أهل الفضل يشي بأفة خطيرة تتسرب إلى أمّتنا من حيث لا ندري.. □

تلك الأفة التي هي ذلة للتابع وفتنة المتبوع والتي ينبغي أن تزول فوراً من بيننا وأن يسعى أهل الفضل دوماً لنبذها وعدم السماح لأحد أن يعاملهم في إطارها وأن يتدكروا ويذكروا غيرهم دوماً بأن خير الهدي هدي نبينا صلى الله عليه وسلم وأنه كان متواضعاً متبسطاً رفض دوماً أن يتكلف أحد في معاملته وأعلنها صريحة قائلاً: <لست بملك>!